بابيلـــــون
فى المصادر المصرية القديمة والعربية

دكتـور
أحمد عبد القادر جلال*

تقترن محاولةُ التعرف على المدلولات اللغوية والحضارية للفظ بابيلون بالإستقرار الإغريقى الرومانىَ فى مصر ، مع ما صاحبه من محاولات المزج بين الحضارتين المصريةِ القديمة والإغريقيةِ الرومانية .

فمن الناحية اللغوية ، هناك من يُقَرِّبْ بين نطق لفظ بابيلون واسم Pr - Ḥ^{c} pỉ n Ỉwnw - الذى أُطلِقَ على بلدة مصرية قديمة تقع فى نطاق الحدود الجغرافية المقترحة لمنطقة بابيلون الرومانية – البيزنطية على الجانب الشرقى لرأس دلتا نهر النيل [1] .

وفضلاً عن الفوارق اللفظية [2] بين بابيلون والكيفية التى قرأ بها المصريون فى العصر المتأخر إسم Pr - Ḥ^{c}pỉ n Ỉwnw [3] ، فإنه من المُرَجَّح أن التسمية اليونانيةَ

(*) أستاذ مساعد الآثار – بقسم الآثار المصرية – بكلية الآثار – جامعة القاهرة .

(١) Abdel - Aziz Saleh, Excavations at Heliapolis - Ancient Egyptian Ounû, 2 vols, Caira 1981, 1983; I, ff. ; M. Krause, Babylon, in Rbk, I, Stuttgart , 1966 , 452; A. H. Gardiner, Ancient Egyptian Ononmastica, II, Oxford, 1947, 143 * ; The Coptic Encyclopedia, II, New, York, 1991 , pp. 317 ff.

(٢) كثيراً ما يُطلَق عليها تحريفات لفظية ، ويُستشْهدُ فى هذا الخصوص بالكلمة اليونانية Αιγυπτος (أو ϵγυπτως) التى يرى الباحثون أنها محورة إمّا عن الإسم المصرى القديم Ḥwt k3 ptḥ الذى يصف مدينة منف بـ « بيت أو – معبد – روح الإله بتاح » – A. Hermann, Agyptologische - Marginalien zur spätantiken Ikonographie, in J. A. C. 5, Münster, 1962 , S. 82 ، أو عن الإسم المصرى القديم ỉ3bt أو ỉ3bỉ الذى يشير إلى النيل أو إلى أرض النيل مصر ، عبد العزيز صالح ، حضارة مصر القديمة وآثارها ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١١

(٣) من أبرز هذه الفوارق ما يرى فى كلمة pr التى نطقها الأقباط ⲡⲣⲟ أو ⲡⲟⲣ أو ϥⲟⲣ W. Vycichle, Dictionnaire Étymologique de la Langue Copte, Leuvan , 1983 , pp. 162 , 306 .

Βαβυλὼν Αἰγυπτου إستهدفت التفرقةَ بين هذه المنطقة وبين بابيلون اخرى يُرَجَّح أنها كانت بالعراق وتعرَّفَ عليها الإغريق [١] . أما الأقباط فلقد فضّلوا إستخدام الإسم الشائع لمصر وهو ⲭⲏⲙⲓ المُحَرَّف عن المصرية 𓆎𓅱𓏏 Kmt [٢] ، فميّزوا منطقة بابيلون بأنها ⲃⲁⲃⲉⲗⲱⲛⲛⲭⲏⲙⲓ [٣] . ومع ظهور كلمة مصر [٤] كبديل للمصرية Kmt أو ⲭⲏⲙⲓ ، واليونانية Αἰγυπτος ، عُرِفتْ منطقة بابيلون فى النصوص الحبشية بـ bábilón za Mesr ، وفى العربيةَ ببابيلون مصر [٥] .

ويبدو أن محاولةً علميةً قد بذلها المثقفون من الفاتحين العرب للتعرف على الدلالات اللغوية لهذه الكلمة التى ذكروا أنها تعنى باب ليون أو باب اليون [٦] . ولعلهم قصدوا من هذه القراءة الإشارة إلى المنطقة التى سكنها الإغريق الذين عرَّفهمُ الأقباط بإسمهم الشائع الأيونيين ⲟⲩⲉⲉⲓⲛⲓⲛ [٧] ، أو للتدليل على أن هذه المنطقة هى المدخل أو الطريق إلى مدينة أونو (أو عين شمس) التى ظل الأقباط ينطقونها بنفس تسميتها المصرية القديمة 𓇋𓈖 [٨] .

* * *

وإذا كان الإغريق والرومان قد ميّزوا مدينةً هامة من مدن هذا الجزء الشرقى من رأس الدلتا وهى مدينة أونو التى عرَّفوها بمدلولاتها الدينية كمدينة لعبادة الشمس – أى

---

(١) A. Hermann, op. cit. , S. 82

(٢) أو ⲕⲏⲙⲉ كما وردت فى اللهجة الصعيدية W. Vycichle, op. cit. p. 81.

(٣) A. Hermann, op. cit S 82.

(٤) يشير ورود لفظ مصر فى التوراة إلى أن هذه التسمية هى التى كانت معروفة لدى سكان فلسطين وما حولها منذ عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام (تكوين ٢٥ ، ١٢ – ١٨) ، أو أنها إنتشرت فى هذه المناطق قبيل تسجيل التوراة فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم إنتقلت منها إلى سائر أنحاء شبه الجزيرة العربية ، حيث ذكرها القرآن الكريم فى كل الأحداث الدينية المتعلقة بمصر .

(٥) A. Hermann, op. cit. , S. 82 Anm. 112

(٦) إبن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ٦١ حاشية ٣

(٧) J. Čermy Coptic Etymological Dictionary, Cambridge, 1976 , p. 213; W. E. Crum, A Coptic Dictionary, Oxford, 1939 , P. 484 , 1

(٨) Wb, I, 54 , 5 ; W. Vycichle, op. cit . , p. 249

هليوبوليس [١] ، فلابد وأنهم قصدوا بمصطلح بابل مصر منطقة بعينها هى التى يعتقد معظم الباحثين فى توبوغرافيا مصر القديمة أنها الجزء الممتد من جنوب أونو حتى منطقة حصن بابيلون فيما يعرف الآن بضاحية مصر القديمة [٢] ، وربما تمتد جنوباً حتى بلدة حلوان الحالية [٣] . وأثبتت الحفائر التى أجريتْ فى هذه المنطقة [٤] أن المصرى أدرك منذ بداية عصوره التاريخية الأهمية الجغرافيةَ والإستراتيجيةَ لهذا الجزء من وادى النيل ، ممثلةً فى دقة مراقبة فيضان نهر النيل ، وسهولة الوصول براً أو بحراً الى المناطق الإستراتيجية لمصر فى فلسطين وسوريا ، وإمكانيةِ التصدى لأى إعتداءات تتّخذُ من شرق وشمال مصر طريقاً لها .

ولتأمين الحماية الطبيعية للمدن والقرى المقامةِ على جانبى النيل وحول الدلتا ، تابع المصرى القديم منسوب إرتفاع الفيضانات بإنتظام ، وهو ما دفعه إلى إبتكار السبلِ المختلفةِ التى قادته فى النهاية إلى إقامة ما يمكن تعريفهُ بمقاييس بدائية لفياضانات النيل تحدثت عنها نصوصُهُ القديمةُ وحدّدتْ لها منطقتين هما جزيرة إلفنتين قرب أسوان ومنطقة بابيلون .

وإذا كان مقياسُ إلفنتين قد تحدّدتْ معالمُه فى العصور المتأخرة [٥] ، فإن وجود مثل هذا المقياس فى بابيلون يعتمد أساساً على إمكانية أن تكون إقامة مقياس للنيل فى جزيرة الروضة على عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك الأموى عام ٧١٥ م [٦] ، إعتمدت على مشاريع مشابهة له فى هذه المنطقة رمزتْ إليها بعض المسميات المصرية المتواترة فى نصوص دينية قديمة ، وأشار إليها بعض المؤرخين الكلاسيكيين [٧] .

---

(١) من اليونانية Ἡλίου (ς) وتعنى الشمس ، و πόλις (ς) وتعنى مدينة . وقد إرتبطت هذه المدينة منذ بداية التاريخ المصرى بعقيدة الإله آتوم رب الشمس L. A. , II, 1111 .

(٢) M. Krause , op. cit . , 452

(٣) É. Drioton , Les Origines pharaoniques du Nilomètre de Rodah, in Bulletin de l' Institut d' Egypte , t. XXXIV, Session 1951 - 52 , Le Caire , 1953 , p. 313 note 3

(٤) تُعْزى قلةُ الحفائر العلمية المنتظمة فى هذه المنطقة إلى كثرة ما بها من مساكن وأبنية حديثة . فضلا عن الإستخدام السيىء لأطلالها الأثرية التى استخدمت لفترات طويلة كمواد بناء خام مما دمر الكثيرَ منها . M. Krause , op . cit . 453 .

(٥) هناك إشارات إلى ما يمكن إعتبارهُ سداً أو بوابه r - Ḥ^{c}pí تتحكم فى مياه النيل ويشرف عليها الإله حعبى – أو حابى – نفسه . É. Drioton, op. cit . , pp. 297 f .

(٦) Ibid. , p. 291

(٧) أمثال Strabon الذى تحدث عن مقياس للنيل فى منف Ibid. , p. 313 note 3 .

٢٢ ـــ

ومن أبرز هذه المسميات مصطلح pr- ḥ^{c}pỉ الذى يعنى حرفياً « بيت النيل » ، أو « معبد إله النيل » [١] ، والذى إرتأه K. Sethe مقياساً للنيل فى هذه البلدة التى عُرِفتْ بإسمه [*] . فى حين إعتبره A. Gardiner مركزاً ثقافياً – إختص بالشئون الدينية – لإله النيل [٢] . ومن خلال هذين الإحتمالين ، وإرتباط pr - ḥ^{c}pỉ ببلدة Ḥr (ỉ) - ch3 التى تقع ضمن بابيلون إستشهد É. Drioton ببعض النصوص الدينية التى تُشير إلى اهمية Ḥr (ỉ) - ch3 وجبانتها الشهيرة فيما يراه أنه تحكم فى مياه النيل ، أو مقياس لفيضانه [٣] .

وفضلاً عما ذكره É. Drioton من فقدان الأدلة الصريحة لوجود مثل هذا المقياس فى اى من pr - Ḥ^{c}pỉ ، أو Ḥr (ỉ) - ^{c}ḥ3 ، فإن إقتران الفاظ مثل ḥsf « يتحكم » ، ḥ3w « يقيس » بجبانه Ḥrỉ - ^{c}ḥ3 ، وباراضيها الزراعية وما تنتجة من حبوب [٤] ، يجعل من غير الميسور التأكد من وجود مثل هذا المقياس فى هذه المنطقة .

وإذا كان هناك إتجاه عام إلى إعتبار بلدة pr - Ḥ^{c} pỉ جزءاً من المنطقة الممتدة ما بين أونو (عين شمس) شمالاً وحلوان جنوباً ، فإن تحديد مكانها بدقة أمرٌ لم يتحقق بعد . فإرتباط pr - Ḥ^{c} pỉ بأونو أشارت إليه تسمية pr - Ḥ^{c}pỉ n Ỉwnw . وهى تسمية قد يكون لها دلالة جغرافية أو دينية تُظْهِرحرصَ المشرفين على إدارة شئون أونو أو كُهانها على تأكيد تبعية Ḥ^{c} pỉ - Pr – سواء كانت مقياساً للنيل أو مركزاً ثقافيا لإله النيل Ḥ^{c} pỉ ، أو ضاحية دينية ضمت أياً منهما – لمدينتهم أونو . أما العلاقة الدينية بين Ḥr(ỉ) - ^{c}ḥ3 , و Pr - Ḥ^{c}pỉ ، فيمكن أن تُرَدُ إلى أن المدينتين كانتا تقعان ضمن المنطقة المحيطة ببابيلون والتى أُشيرَ إليها بعلامة [٥] ، التى ترمز إلى منطقة نائية . بيد أن A. Gardiner

---

(١) المعنى الدارج لكلمة pr هو « بيت » ، غير أنها تشير إلى « معبد » بإعتبار المعبد هو بيت الإله ، Wb. I. 511 , 7 ; 513 , 7 ، وعلى هذا يمكن ترجمة مصطلح pr - Ḥcpỉ بمعبد الإله حعبى الذى يكتب إما بمخصص الإله أو بدونه Wb. III , 43 .

(*) يبدو أن مصطلح pr - Ḥ^{c}pỉ الذى إستخدم بهذه المفاهيم الإدارية والدينية أصبح ذا دلالة جغرافية ضمن منطقة شرق رأس الدلتا التى عرفتها النصوص المصرية بـ Ḥr (ỉ) - ^{c}ḥ3 ، L. A. , I. 592 ، وهو ما حدث بالنسبة لـ pr - Wsỉr الذى تحول فيما بعد إلى مدينة Busiris, Wb. , I , 514 1 .

(٢) A. Hermann , op. cit ., S . 83 Anm . 116

(٣) Op. cit ., pp . 292 ff.

(٤) Ibid . , pp. 294 ff.

(٥) Ibid . , pp. 301 , 312.

يعتقد أن Pr - Ḥ^{c} pî كانت تقع إلى الجنوب من منطقة حصن بابيلون بحوالى عشرة كيلو مترات ، حلت محلها بلدة أثر النبى الحالية [١] . فى حين يذكر É. Drioton أن بلدة حلوان الحديثة ، والتى ورد أن مقياساً للنيل كان موجوداً فيها حتى عام ٧٥١ م ، هى المدينة التى يحتمل أنها أقيمت على أنقاض Pr - Ḥ^{c} pî [٢] (شكل ١) .

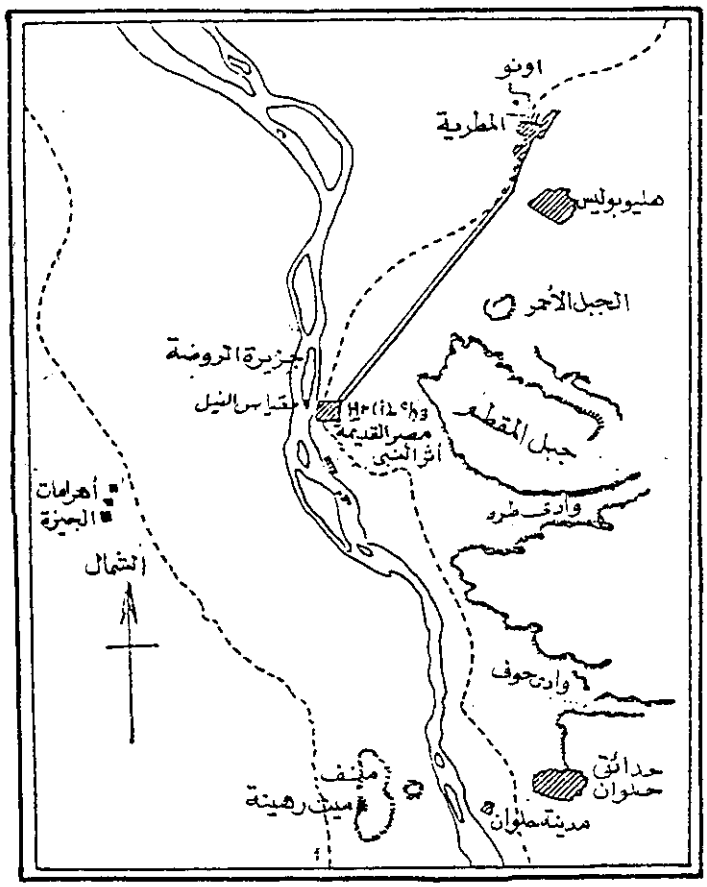

شكل (١)

المواقع المحتملة للمدن المصرية القديمة فى منطقة شرق رأس الدلتا

(١) إعتمد رأيه هذا على بعض آثار عثر عليها فى هذه المنطقة ، منها تمثال للملك مرنبتاح وآخر للملك أحمس الثانى – أمازيس – فى هيئة أبى الهول مقدمين كهبة للإله حمبى ، مما يرجح وجود معبد أو مقصورة دينية إختصت بها بلدة Pr - Ḥ^{c} pî ؟ . Ibid. , p. 311

(٢) Ibid. , p. 313 note 3

تعرّف المصريون منذ أقدم عصورهم على الأهمية الجغرافية والإستراتيچية لمنطقة رأس الدلتا التى يُرجّح انها كانت ملتقى طريقين بريين خدما فيما يبدو أغراضاً إقتصادية وعسكرية . وبينما ربط الطريق الأول منطقة بابيلون والأقاليم المصرية فى غرب الدلتا بشمال أفريقيا ، إستهدف الثانى ربط الجزء الشمالى من هذه المنطقة برأس خليج السويس والطرق المؤدية منه إلى سيناء والمناطق الأسيوية [1] (شكل رقم ٢) .

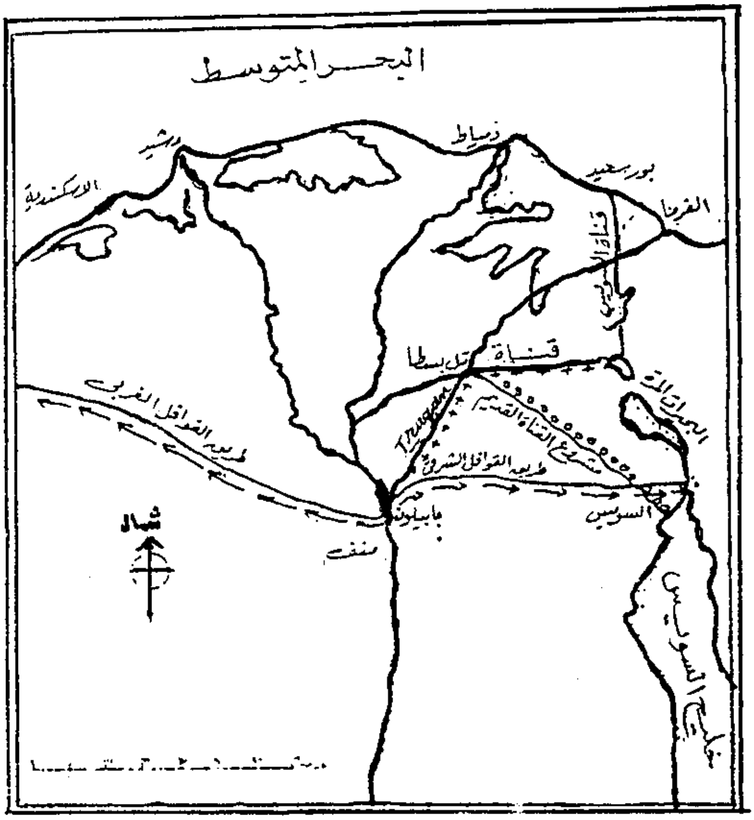

شكل (٢)

طريقا القوافل التجارية ومجرى قناة Trajan وإتصالهم بمنطقة بابيلون

---

(١) M. Krause , op. cit. , 453 Abb. 1

وتسهيلاً لنقل البضائع المصرية إلى المناطق الآسيوية عبر سيناء ، إتجهت أنظار المصريين إلى شق قناة تصل النيل بالحدود الغربية لسيناء ويُفْهمُ مما ذكرهُ المؤرخون الكلاسيكيون أن هذه القناة شُقت من خلال مشروعين كبيرين . الأول – والذى ربما يعود إلى عصر الدولة الوسطى – بدأ بشق قناة تصل الفرع البوباسطى للدلتا – شمال الزقازيق الحالية بقليل – أما بالبحيرات المرة قرب ميناء الإسماعيلية الحالية ، أو بمنطقة السويس التى عرفت بإسم Klysma فى العصر الكلاسيكى (١) . ويبدو أن المشروع الثانى بدأ فى فترة متأخرة ربما تعود إلى عهد الملك نيكاو – حوالى ٦٠٠ ق . م – ، حينما شُقت قناة أخرى تصل النيل عند منطقة بابيلون بالفرع البوباسطى نفسه ، وربما عند مدخل القناة الأولى – شكل رقم ٢ – . ولا يستبعد أن القناتين تعرضتا فيما بعد لإهمال أو تلف ، وهو ما دفع الإمبراطور Trajan – ٩٨ – ١١٧ م – إلى إعادة شقهما ، وعرفتا على عهده بإسم amnis Traianus (٢) .

ويرجعُ إختيارُ الرومان لمنطقةِ رأس الدلتا (أو بابيلون) كواحدة من ثلاث مناطق لتجمعات قواتهم العسكرية (٣) إلى الأهمية الإستراتيجية لهذه المنطقة التى ردّتها النصوص المصرية إلى عصورٍ سحيقةٍ من التاريخ المصرى حينما روت أن بلدة ʿḥ3 - Ḥr(ỉ) (٤) شهدت المعركةَ الفاصلةَ التى إنتهت بإنتصارِ أتباع حور على أتباع ست (٥) ، أو بالأحرى الأحداث العسكريةِ التى أفضت إلى توحيد شطري مصر الشمالى والجنوبى (٦) ، وما يُرجّحْ

---

(١) عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم ، مصر والعراق ، حـ ١ ، القاهرة ١٩٩٠ ، ١٨٧ ، ٣٢٧ .

(٢) A. Hermann, op . cit . , s 84 Anm. 123 ; M. Kamil, Coptic Egypt, Cairo, 1968 , P.98

(٣) تمركزت الفرق العسكرى الرومانية فى ثلاث مناطق رئيسية هى Thebais طيبة فى الصعيد ، و Arisone الفيوم الحالية ، وبابيلون عند رأس الدلتا ، M. Krause , Äygpten , in Rbk, I, 61-62

(٤) وتعنى حرفيا « من تحت المعارك » أى « سيدة المعارك » أو المتصلة بها « لما يعنيه حرف الجر Ḥr من معان مشابهة ; Wb. iii , 388 f. .

A. H. Gardiner , Egyptian Grammar. §§ 56 , 166 204.

(٥) É. Drioton, op. cit ., p. 314 ; Babylon, in L. Ä. , I , 592; A. H. Hermann, op. cit . S . 83 Anm. 118.

(٦) W. B. Emery , Archaic Egypt, Edinburgh , 1963 , pp. 38 ff

من إتخـــاذ الجـــزء الشـرقى مـن منف – أى مـنطقة بـابيلـون – عاصـمة إدارية لـلمـملكة الموحدة (١) . وبرزت الأهمية العسكرية لهذه المنطقة مع المراحل النهائية لحرب الهكسوس حين حوّلَها أوائلُ ملوك الأسرة الثامنة عشرة إلى ترسانة بحرية (٢) إستهدف إسطولُها نقل الإمدادات العسكرية إلى المحـاربين المصـريين فى خطـوط المواجهة مع الـهكسـوس أو الأسيويين على حدود مصر الشرقية . واستمر الأمرُ كذلك حتى إستولى بيعنخى ، أحد ملوك الأسـرة الخامسة والعشـرين النوبية ، على سفـن هذه التـرسانه وأستغلـها فـى الإستيلاء على منف التى إتخذهـا عاصمـة سياسية له ولأبنائه من بعده (٣) . ومنذ عهد حفيده الملك طاهرقا تحملت الحامية العسكرية المصرية فى شرق منف مهمة التصدى لهجمات الأشوريين والفرس والبابليين الذين إستهدفوا بالدرجة الأولى إحتلال مصر والسيطرة عليها . وكانت مثل هذه المجابهات تحدث إما فى شرق منف نفسها ، وتنتهى بتدمير المدينة ، مثلما حدث على عهدى كل من الملك الأشورى أشور أخادين ، والفارسى قمبيز الثانى (٤) . أو أن هذه الحاميات العسكرية كانت تخرج من منف لملاقاة هؤلاء الغزاة مثلما حدث مع حملات الملك البابلى نبوخذ نصر على عهد الملوك نيكاو الثانى وواح إب رع – أبريس – وأحمس الثانى – أمازيس (٥) .

ويشير العديد من الوثائق والآثار التى عُثِرَ عليها من العصر الإغريقى فى منف إلى أن اليونانيين لم يغفلوا المكانةَ السياسيةَ العسكرية والدينيةَ لهذه المدينة ، سواء على عهد الإسكندر الأكبر ، أو على عهود خلفائه من البطالة (٦) . ومنذ عام ٣٠ ق . م حوّل الرومان منطقة بابيلون إلى ثكنةٍ عسكريةٍ رئيسيةٍ تضم العديد من القلاع والحصون التى تكفُلُ حمايةَ بقائهم فى مصر (٧) .

---

(١) يعتمد هذا الرأي على أن جبانات منف ، سواء فى سقارة أو الجيزة ، مثلت العالم الغربى أو عالم الموتى ، فى حين كانت العاصمة الإدارية التى عرفت بالجدار الأبيض تقع إلى الشرق منها ، إما فى بابيلون بحدودها الجغرافية سالفة الذكر ، أو إلى الجنوب منها .

(٢) Memphis, in L. Ä. IV. Wiesbaden, 1982, 28 ff.

(٣) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ٣٠٩

(٤) المرجع السابق ، ٣١٨ ، ٣٣٤

(٥) المرجع السابق ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠

(٦) Memphis, in L. Ä. , IV, 31

(٧) M. Krause, Babylon, in Rbk , I, 453 ; M. Kamil, op. cit. , p. 89

ومن أبرز ما تبقى من هذه القلاع العسكرية الحصن المعروف بحصن بابيلون ، والذى يُرجَّحُ أنه أُقيم مع بداية عهد الإمبراطور Augustus – ٣٠ ق.م [١] ، أو بعده بقليل حيث تذكر المصادر الرومانية أن كلا من الإمبراطور Trajan – ٩٨ – ١١٧ م – والإمبراطور Arcadius – ٣٩٥ – ٤٠٨ م – قد عَدلا من بعض أبنيته أو أعادا بناءها [٢] . وهو ما يشير إلى إستمرارية أهميته العسكرية .

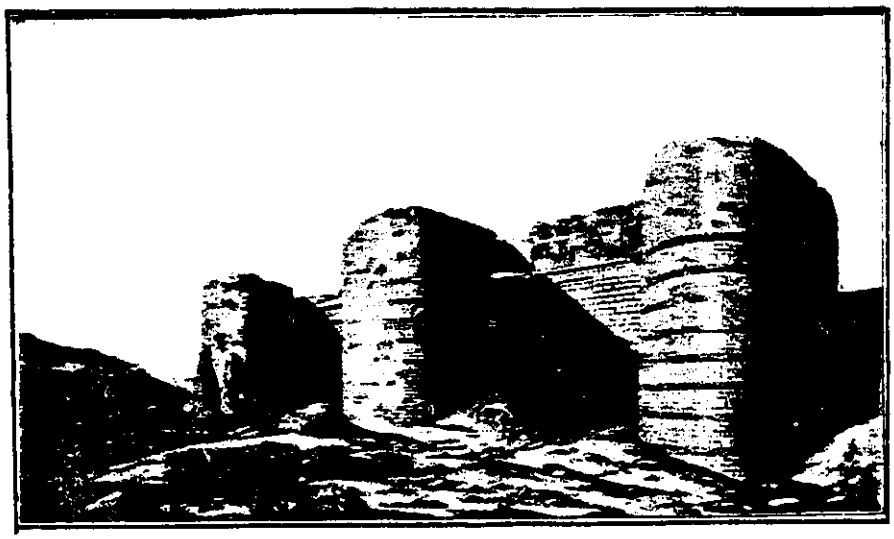

صورة رقم (١)

حصن بابيلون فى نهاية القرن الثامن عشر

---

(١) A. Hermann, op. cit . , S. 85 ; M. Kamil, op. cit . , p. 89.

(٢) ذُكِرَ أن المهندس الدمشقى Appllodor الذى عاش على عهد الأمبراطور Trajan هو الذى أقامهم هذا الحصن . فى حين يرى بعض الباحثين أن البناء بوضعه الحالى يعود إلى عهد الأمبراطور Arcadius وإستُكمِلَ فيما بعد . M. Krause , op. cit . , 456 , 459; M. Kamil , op. cit , p. 89 .

وإستهدف بناءُ هذا الحصن (صورة رقم ١) فى هذه المنطقة الإستراتيجية أن يكون بمثابةِ قلعة عسكريةٍ تتصل بالنيلِ مباشرة عن طريق مِرْفأ نهرى أُقيم بين برجين حربيين مستديرين تتخللهما البوابةُ الرئيسيةُ لدخولِ هذا الحصن [1] (شكل رقم ٣) وإلى جانب هذين البرجين المستديرين ، هناك عشرة أبراجٍ نصف دائرية تحيط بالجوانب الجنوبية

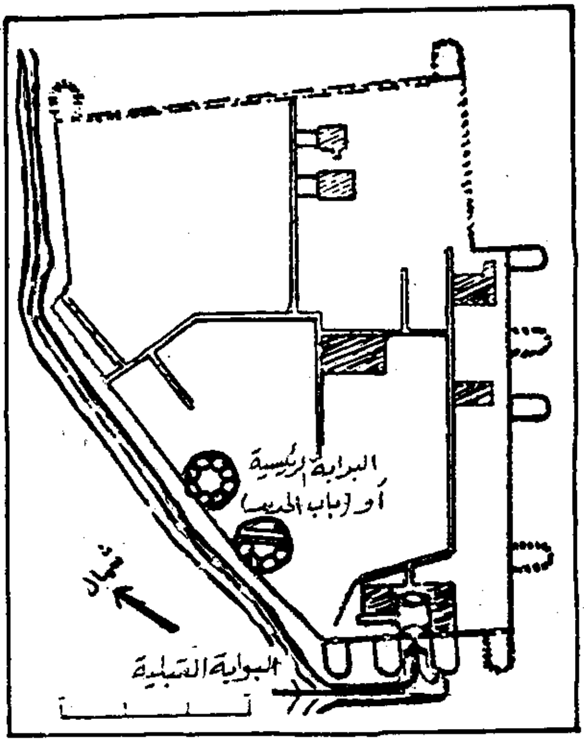

شكل (٣)

تخطيط حصن بابليون كما كان فى القرنين السادس والسابع م

(١) إكتُشفتْ حديثاً بقايا هذا المرفأ على عمق ستة أمتار من سطح المنطقة التى تتوسط هذين البرجين ، حيث توجد الآن حديقة المتحف القبطى . M. Kamil, op. cit . , pp. 91 f وبرغم بعد المسافة بين هذا المرفأ وبين ضفة النيل الشرقية – حوالى ٤٠٠ متر – ، إلا أن وجود مثل هذا المرفأ يدلُّ على أن هذا الحصن أُقيم – كما تقدم – على ضفة النيل مباشرة ، مما يُرجح أن النيل إبتعد بمجراه غربا .M Krause, op. cit . , 456 ، أو أن قناة فرعية كانت تصل النيل بهذا المرفأ داخل الحصن . أما البوابة نفسها فيبدو أنها صنعت من الحديد ، إذا ينطبق عليها وصف المؤرخ العربى المقريزى « باب الحديد » .A. Hermann, op . cit ., S. 85

والشرقية والشمالية لم يبق منها إلا برجان فى الجهة الجنوبية بينهما بوابةً بازيليكية الشكل [١] ، من المُرَجَّح أنها هى التى أطلق عليها العرب « الباب القبلى » [٢] (شكل رقم ٤) ، وأشاروا إلى أهميتها الإستراتيجية لقربها من النيل ولإتصالها مباشرةً بالطرق البرية المؤدية إلى الصعيد فى الجنوب . وبلغ إرتفاع هذه الأبراج حوالى عشرين متراً [٣] ، وهو ما يدل على حرص القيادة الرومانية على توفير الحماية الإستراتيجية للفرق العسكرية المقيمة فى هذا الحصن [٤]

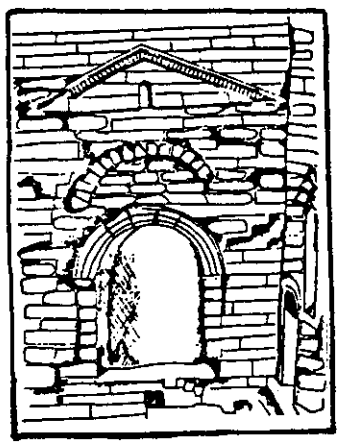

شكل (٤)

البوابة البازيليكية تتوسط الباب القبلى للحصن

(١) هو الطراز الشائع لمعظم الكنائس القبطية ، ويتميز بواجهته التى شكّلتْها هذه البوابةُ ، التى تقع بين عمودين يحملان واجهة سقف الكنيسة الجملونى الشكل .

(٢) من الأسماء المختلفة التى ذكرتها المصادر العربية عن حصن بابيلون إسم القصر أو القُصير ، فضلا عن باب ليون أو باب اليون الذى تقدم ذكره . وبرغم وضوح ما ذكره هؤلاء المؤرخون من أن تسمية قصر الشمع تعود إلى ما كان يوقد من شموع فى أبراج هذا الحصن ، فإن هناك من يرى أن كلمة شمع هى تحريف للكلمة المصرية القديمة kmt ، والتى نطقها الأقباط – كما تقدم A. Hermann, ⲭⲏⲙⲓ op. cit s. 82

(٣) عن الحفائر التى أجريت فى هذا الحصن ووصفه المعمارى ، يلاحظ M. Kraus , op. cit.,453- 460 .

(٤) تمركزت فى هذا الحصن ما بين عامى ٤٢٥ و ٤٣٤ الفرقة الرومانية الثامنة ، Ibid ., 453 .

شكل إقتحام هذا الحصن بالنسبة للفاتحين العرب عقبة رئيسية دفعتهم إلى محاصرته من خلال خندق كفل لهم الحماية من هجمات من بداخله ، حتى تمكنوا من إجتياز أسواره بعد أن وصلتهم الإمدادات العسكرية من المدينة (١) .

ويفهم من المصادر العربية أن جسراً عسكرياً كان يربط الحصن بالطرف الجنوبى من جزيرة الروضة . وأنه عندما إشتد ضغط المحاصرين ، دمر المقوقس قائد المقاومة الرومانية هذا الجسر ، ولجأ هو ورجاله إلى هذه الجزيرة مستعينين بسفن كانت مرابطة أمام الباب القبلى (٢) . وتضيف هذه المصادر أن الوصول إلى المقوقس والهاربين معه إلى الجزيرة تطلب من الفاتحين العرب إستخدام مثل هذه السفن حتى تحقق لهم إقتحامُ الحصن فى التاسع من ابريل عام ٦٤١ م ، وتبعه ملاحقهُ فلول الرومان والأقباط المنسحبة ، سواء إلى الجزيرة ، أو فى إتجاه الملاذ الأخيرة لهم فى الإسكندرية (٣) .

إنعكست هذه الأهمية الإستراتيجية لمنطقة بابيلون على ما يمكن تعريفه بالصورة الرمزية لمصر التى إنطبعت فى أذهان فنانى الدول المحيطة بها ، والتى عبر عنها تصوير فريد لأبرز بنائين فى هذه المنطقة وهما مقياس النيل وحصن بابيلون .

فعلى أرضية أحد الأبنية البيزنطية المقامة على الطريق الرومانية ما بين مدينتى عمان ودمشق القديمتين ، عثر على لوحة من الفسيفساء (٤) ، (شكل رقم ٥) صور عليها منظر نيلى مثل عموداً ذا ركيزة سجلت عليها أرقاما مسلسلة ، توحى بأنها إستخدمت لقياس إرتفاع منسوب مياه النيل . وعلى ضفة النيل مباشرة ، صور بناء من ثلاثة طوابق يحفه على ما يبدو برجان نصف مستديرين يشبهان تلك التى تحيط بحصن بابيلون . وبينما تعلو البناء نفسه قبة « ضخمة » كالتى تميزت بها الكنائس القبطية البيزنطية التصميم ، صورت مناظر نيلية تقليدية منها تصوير سمكة كبيرة وقارب شراعى .

---

(١) إبن عبد الحكم ، المرجع السابق ، ٥٩ ، ٦١ .

(٢) المرجع السابق ، ٦٤ .

(٣) المرجع السابق ، ٦٩ ، M. Krause , op. cit . 453 ; M. Kamil, op cit . , p . 91

(٤) يعرف هذا المنظر بـ « فسيفساء أم المونابية » ، نسبة إلى بلدة Umm al - Munâbia ، على سفوح جبل عجلون ، حيث إكتشف فى عام ١٩٤٢ ، وتحتفظ هيئة الآثار الأردنية بأحجارة الفسيفسائية بعد أن تحطم المنظر أثناء نقله من هذه المنطقة ، ولم يبق من أصله إلا ما سجلته البعثة المكتشفة ، A. Hermann , op cit ,. S 79 Anm. 99 .

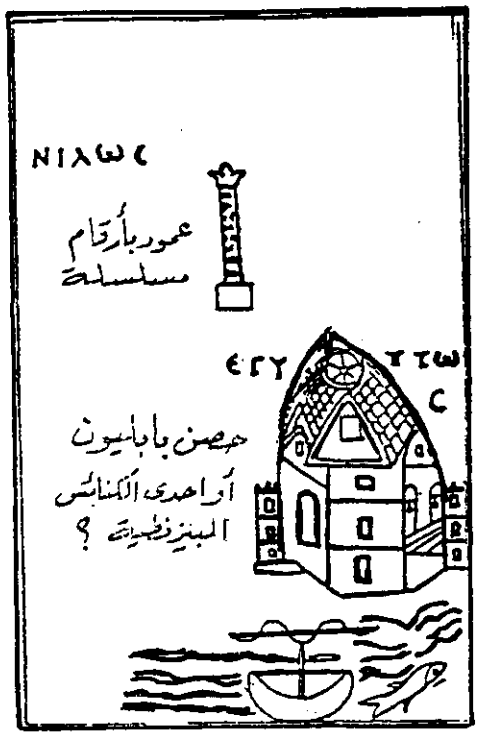

شكل (٥)

مصر ونيلها ؟ كما تخيلها سكان فلسطين وسورية فى القرن السادس الميلادى

شكل (٦)

إحدى الكنائس التى رمزت الى مصر

وإزاء تقارب وجهات النظر فيما يمثل كل من هذين البنائين [١] ، فإنه من الواضح مع وجود الجملة القبطية ⲛⲓⲁⲱⲥ ⲉⲡⲩⲧⲱⲥ التى تعنى « نيل مصر » ، أن الفنان الذى أراد تصوير منظر تقليدى يمثل نيل مصر ، أو مصر نفسها ، أخذته المعالم الحضارية الهامة فى منطقة بابيلون كمقياس النيل وحصن بابيلون ، الذى كانت قد علَته الكنائس القبطية بقبابها البيزنطية الشكل ، والتى رمز بإحداها أيضا إلى مصر [٢] (شكل٦) .

ومن الناحية الدنية ، حفلت منطقة بابيلون بإحداث مذهبية إسطورية ودينية هامة ، إرتبطت بمدن أونو و 𓎛𓄿𓂋 - 𓇋𓏏 و 𓊪𓏏𓇋𓂋 - 𓊪𓂋𓊃 ، وأضفت على المنطقة طابعاً دينياً هاماً حفظه لها التاريخ إلى ما بعد الفتح العربى .

فالتاريخ المتقارب لنشأة مدينتى أونو و 𓇋𓏏 - 𓎛𓄿𓂋 يعتمد فيما يرجح على تزامن صياغة مذهب أونو الكونى بأحداث الحروب الإسطورية التى خاضها أتباع حور وست فى 𓇋𓏏 - 𓎛𓄿𓂋 [٣] ، والتى أضفت – كما تقدم – إلى وحدة الشمال والجنوب . وبمثلما إعتُبِرتْ أونو مدينة للإله أتوم [٤] ، أشارت بعض نصوص العصر المتأخر إلى أن أتوم يسكن فى مدينته 𓊪𓏏 - 𓎛𓄿𓂋 التى يدافع عنها بقوسه ، مثلما يدافع عن أونو نفسها [٥] . وقَرَنتْ هذه النصوص بين الفردوس ، كما تخيله المصريون ، وبين أرض

---

(١) أشار A. Hermann إلى أن هذا المنظر يشير ، فى شىء من الوضوح ، إلى مقياس النيل الموجود فى هذه المنطقة ، وإلى حصن بابيلون ، أو إلى أحدى الكنائس القبطية المقامة على ضفة النيل الشرقية ، وأنه – أى المنظر – وجد سبيله إلى فلسطين والأردن وسورية بطريقة ما Op. cit., S. 81 ff. .

(٢) ويعرف بـ « فسيفساء الـ Madaba . Ibid., S. 85, 91 Anm. 154 .

(٣) يعتمد هذا الرأى على أن الأفكار والمبادىء التى صاغها كهان أتوم فى مذهبهم الكونى فى أونو كانت موجهة بالضرورة إلى جموع مستقرة ومتحضرة فى فترة يُرجَّح أنها الفترة التى أعقبت هذه الحروب . أما É. Drioton فيقترح تاريخاً متزامناً لنشأة كل من أونو و 𓊪𓏏 - 𓇋𓏏 . Op. cit., p. 314 pr .

(٤) دائما ما تذكر النصوص أن أتوم – يسكن – فى أونو 𓇋𓏏 m 𓇋𓈖𓏏 ، أو – يسكن – فى مدينة 𓇋𓏏 hr-ỉbn mỉwt.

E. Bnunner - Traut, Atumals Bagenschütze, in MDAIK, XIV, 1956, S. 20f,

فضلا عن ظهور أبرز القاب أتوم ، وهو لقب حامل القوس 𓎛m 𓇋𓈖𓏏 ، فى 𓎛𓄿𓂋 - 𓇋𓏏 نفسها ، 𓉔r . L. Ä., I, 592 .

(٥) E. Brunner - Traut, op. cit., S. 23

مدينة $^{c}h3$ - $Hr\hat{i}$ ، التى حوت جبانتين هامتين ، نسبت الأولى إلى المدينة نفسها $^{c}h3$ - $Hr\hat{i}$ $\hat{i}3t$ (١) ، وعرفت الثانية بإسم $Im\dot{h}t$ (٢) . وبينما يسكن فى جبانة $^{c}h3$ - $Hr\hat{i}$ الهة كبرى مثل أتوم - مع ولديه شو وتفنوت - وحور أختى (٣) وأنوبيس ورع (٤) ، ذكر أن مقصورة سرية مقدسة للإله أمون رع أقيمت فى العالم السفلى لهذه الجبانة ، حيث يجتمع مويدوه فيها للدفاع عنه ضد أعدائه (٥)

وإذا كان تأسيس مدينة $H^{c}p\hat{i}$ - pr يبدو متأخراً نسبياً عن النشأة الإسطورية لكل من أونو و $^{c}h3$ - $\underline{H}r$ $(\hat{i})$ ، فإن إرتباط النيل بمتطلبات الحياة الأولية للمصريين منذ فجر تاريخهم يضفى طابع الأزلية على ظهور إله النيل حعبى فى هذه المدينة التى عرفت بإسمه ، والتى إقترنت فيما بعد بأونو ، كما دل عليه إسمه $H^{c}p\hat{i}$ n $\hat{I}wnw$ - Pr (٦) . أما لقب « أبو العشرة » ، الذى إرتبط بالإله حعبى فى مدينته $H^{c}p\hat{i}$ - Pr (٧) ، فإنه يشير غالباً إلى ترأسه لعشرة آلهة ينسبوا إلى هذه المنطقة . وهو ما يضفى عليه صفة الزعامة مثل بقية الآلهة الكونية كأتوم وبتاح وجحوتى .

ومع هذه المكانة الدينية المميزة لمنطقة بابيلون ، كان من الطبيعى أن يشير الأنجيل إليها فى سياق ذكره لتوجه السيد المسيح طفلاً مع أمه إلى مصر ، هرباً من بطش هيرودس - ملك اليهود فى أورشليم القدس - الذى أزمع قتله (٨) .

---

(١) É. Drioton, op. cit . , p. 294

(٢) Ibid . , p. 312

(٣) علاوة على ظهوره بحور أختى - أى حور الأفقين - ، ظهر الإله حور فى منطقة بابيلون بصورتين أخريين تمثل فيهما بالإله أتوم نفسه . الأولى « حور بحده » ، والثانية « سيد القوس ، حور الأول - فى - منطقة شرق رأس الدلتا التى رمز إليها بعلامة (𓐍) ، E. Brunner - Traut Op. cit . S. 23 .

(٤) É. Drioton, op. cit ., p. 296

(٥) E. Brunner - Traut, op. cit . S. 25

(٦) وإن كان É. drioton يرى ان نشأة $H^{c}p\hat{i}$ - pr كانت متزامنة مع نشأة $^{c}h3$ - $\underline{H}r$ $(\hat{i})$ ، وانها - أى $H^{c}p\hat{i}$ - pr إرتبطت فيما بعد بأونو كما دل عليه إسمها $H^{c}p\hat{i}$ n $\hat{I}wnw$ - Pr ، وهو الإسم الذى ظل مستخدما حتى مقدم الإغريق إلى مصر op. cit ., p. 314 .

(٧) Ibid., p. 311.

(٨) لم يشر إنجيل لوقا إلى حادثة اللجوء إلى مصر هذه ، فى حين ذكرها إنجيل متى ٢-١٣-١٥-١٩-٢١ .

وإذا كانت هناك مدن كثيرة قد وردت فى سياق تفاصيل هذه الرحلة التى حفظتها وثائق الكنيسة القبطية [١] ، فإن بابيلون – التى ذكرت بابل فى الترجمة العربية للإنجيل ، فى حين كتبت بابيلون Babylon فى الترجمة اليونانية – كانت المدينة الوحيدة التى وردت فى رسالة بطرس الأولى ، وعلى لسان سلوانس قائلة « تسلم عليكم التى فى بابل المختارة معكم ومرقص إبنى » [٢] ، فى إشارة إلى السيدة مريم العذراء ، التى كما توضح هذه الوثائق القبطية أنها إختبأت فى كهف بكنيسة أبى سرجة فى وسط حصن بابيلون ، إما فى رحلة مجيئها إلى مصر [٣] ، أو فى طريق عودتها إلى فلسطين [٤] .

وإزاء هذه المكانة المتميزة لبابيلون فى الإنجيل تحولت المنطقة برمتها منذ بداية القرن الخامس الميلادى إلى مستوطنة مسيحية ضخمة ضمت العديد من الأديرة والكنائس القبطية التى أقيمت داخل وحول حصن بابيلون [٥] .

ومنذ بداية الأستقرار العربى فى مصر ، لم يكن من السهل على القيادات العربية المتعاقبة على حكمها تجاهل الأهمية الإستراتيجية لمنطقة بابيلون [٦] فمنذ أن تلقى عمرو بن العاص توجيهات الخليفة عمر بن الخطاب بالا يجعل بينه وبين المسلمين بحراً ، وقع إختياره على المنطقة التى تقع إلى الشمال مباشرة من حصن بابيلون ليقيم العاصمة السياسية والإدارية لحكمة والتى عرفت بإسم الفسطاط [٧] . ثم أنشئت بعد ذلك عواصم سياسية أخرى إلى الشمال من الفسطاط ، مثل العسكر والقطائع وقاهرة المعز لدين الله الفاطمى ، التى أقام الأيوبيون إلى الشرق منها قلعتهم الشهيرة ، التى إستمرت تؤدى مهامها العسكرية حتى زمن العثمانيين (شكل رقم ٧) .

---

(١) وردت تفاصيل هذه الرحلة فى رؤية إرتآها البطريك ثيوفيلس Theophilus – البطريك الثالث والعشرون لكنيسة الإسكندرية ، ما بين ٣٧٦ – ٤٠٣ م – M. kamil , op. cit . , p. 7 . اما تفاصيل مكوث السيدة مريم وإبنها السيد المسيح فى مدن مصر الوسطى فلقد قصها قرياقوس Kyriakos أسقف مدينة البهنسا فى خطبة له إكتشفت حديثا Op. cit. , p. 5 .

(٢) رسالة بطرس الرسول الأولى ، الأصحاح الخامس ١٤ , The new English . Bible, Oxford 1985 , 1 Petr, 5, 14 .

(٣) رؤوف حبيب ، العائلة المقدسة فى مصر ، ص ٤

(٤) M. Kamil, op. cit . , pp . 12 f . ; 17

(٥) M. Krause , Babylon, in Rbk , I, 459 - 460

(٦) إقتصرت تسمية بابيلون على منطقة حصن بابيلون الذى عرف – كما تقدم – بقصر الشمع .

(٧) إبن عبد الحكم ، المرجع السابق ، ص ٩١ وما بعدها .

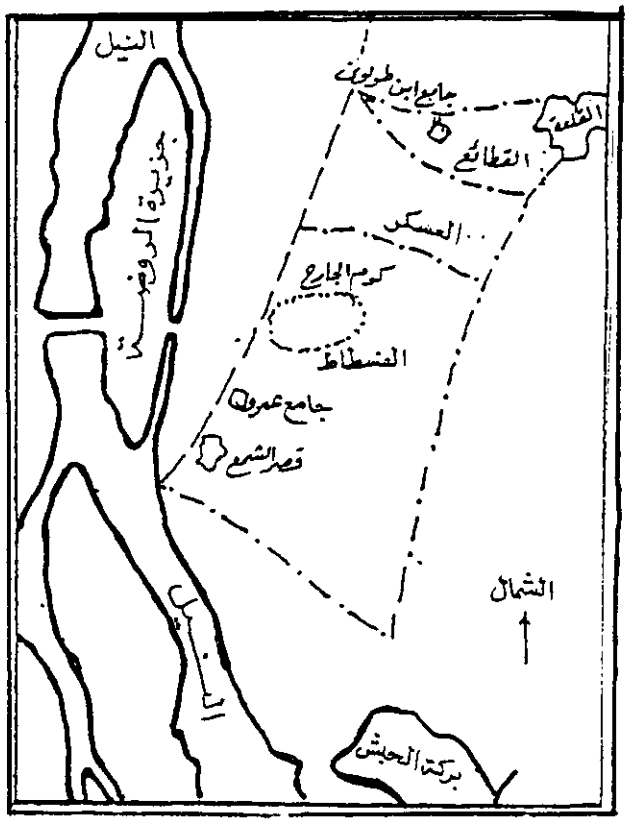

شكل (٧)

المدن الإسلامية العربية فى منطقة بابيلون

قائمة بأهم المختصرات

J. A. C. , : Jahrbuch für Antike und Christentum, Münster, 1958 ff.

L. A. , : Lexikon der Ägyptologie - Herausgegeben von W. Helck und E. Otto - 5 vols. Wiesbaden, 1975 ff.

Rbk. , : K laus Wessel (Hg) , Reallexikon zur byzantinischen Kunst, 3 vols. Stuttgart, 1966 - 1978.

Wb. , : A. Erman und H. Grapow, Wörterbuch der ägyptischen Sprache, Leipzig, 1926 - 31.

مصادر الأشكال في البحث قبل تعريب معالمها :

شكل ١ : É. Drioton, Les Origines . , Fig . 3

شكل ٢ : M. Krause, Babylon, In Rbk , I. Abb. 1

الأشكال ٣ – ٧ : A. Hermann , Ägyptologische. , Tafel 3 b . Abb. 13 , 14 10; Tafel 3 a

شكل ٧ : حسن الباشا ، مدخل إلى الآثار الإسلامية ، القاهرة ١٩٨١ ، شكل ٧